الهجرة ودورها في انتشار الإسلام في الحبشة

أن قراءة سريعة للمباحث السابقة تضعنا أمام جملة حقائق مهمة من الناحية التاريخية.

الحقيقة الأولى:

تتمثل الحقيقة الأولى بكون الإسلام دخل في أرض الحبشة منذ أن وطئت أقدام أصحاب رسول الله ﷺ عام خمس من البعثة النبوية الشريفة حينما انتقل ٧٠٪ تقريباً ممن أسلموا حتى ذلك الوقت، أي أن ثلثي أفراد المجتمع الإسلامي خط رحاله في تلك الديار النائية، مما يعني أن الحبشة عرفت الإسلام قبل الأوس والخزرج بست سنوات تقريباً.

الحقيقة الثانية:

إن الدعوة الإسلامية التي بدأت تنتشر في الحبشة في ذلك الوقت المبكر من عمرها لم تتمكن من الانتشار الواسع، ولم يتمكن الإسلام من فرض عقيدته وشرائعه في الساحة تلك، كما أن التاريخ لم يسجل إسلاماً جماعياً هناك أو تغييراً جذرياً أحدثه الإسلام في المجتمع الحبشي كما أحدث في الجزيرة العربية وما جاورها بل الحقائق التاريخية تثبت لنا أن حركة الدعوة الإسلامية كانت بطيئة، أي لم تحدث انقلاباً اجتماعياً وثقافياً ملموساً، ولذلك تأخرت المواجهة بين المسلمين في الساحل الغربي للبحر الأحمر وبين المسيحيين والوثنيين بضعة قرون، فرغم دخول الإسلام في تلك الديار في السنوات الأولى للبعثة واستمرار الدعوة هناك بعد عودة الصحابة منها إلا أن الإسلام لم يكتسح أرض الحبشة والمناطق المجاورة، وبالتالي ظلت الحبشة معزولة عن

العالم الإسلامي حتى تكونت أولى الإمارات الإسلامية في القرن الثاني وما بعده.

الحقيقة الثالثة:

أصبحت العلاقة والاتصالات بين المجتمع الإسلامي والحبشة ضعيفة بعد عودة المهاجرين إلى الجزيرة العربية كما رأيت قبل هذه السطور.

وظلت أخبار الحبشة وما يجري فيها من أحداث وصراعات خافية عن المؤرخين المسلمين، كما أن أخبار المسلمين غير معلومة بل كان المؤرخون في جهل تام عن أوضاعهم، وكأن الصلة بين الحبشة والدولة الإسلامية قد أصابها جمود بسبب أو بآخر، فالسؤال الذي يفرض نفسه الآن هو:

ما هي الأسباب وراء ذلك الجمود الذي أصاب الدعوة في الحبشة؟ وما هي الأسباب التي أدت إلى إضعاف العلاقة مع الحبشة خلال القرون التي تلت الهجرة وعودة الفوج الأخير من الحبشة؟!!

إن عدم تحقيق نصر كاسح للإسلام في أرض الحبشة له أسباب كثيرة تتفاوت في وجاهتها قوة وضعفاً، فبعضها يرجع إلى طبيعة المرحلة التي كانت الدعوة تمر بها أثناء الهجرة إلى الحبشة وحتى وفاة الرسول ﷺ.

وبعضها يعود إلى طبيعة الفتوحات الإسلامية في عهد الخلافة الراشدة وما نتج عنها من تغيرات هامة مست جوانب الحياة في المجتمع الإسلامي. وبعضها يعود إلى طبيعة الأراضي الحبشية من الناحية الجغرافية ومن الناحية الدينية.

الأسباب التي ترجع إلى طبيعة المرحلة الدعوية!!

أولاً: الهجرة إلى الحبشة كانت في السنة الخامسة من البعثة وهي كما ترى حدثت في وقت مبكر من تاريخ البعثة النبوية حيث لم يكتمل بناء الإسلام كشريعة ومنهاج تبنى عليه الحياة الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، وغيرها.

وفي هذا الوقت لم يكن لدى الصحابة رضي الله عنهم مثل ذلك الرصيد الضخم والتجارب العملية التي كسبها المسلمون في المرحلة المدنية من جهاد في سبيل الله ومقارعة الكفر والطغيان بالسيف والقوة لبناء الأمة الإسلامية، وتطبيق الأحكام الإسلامية وممارستها لأن معظم الأحكام التفصيلية نزلت في المرحلة المدنية ـ وتعميق المفاهيم الإسلامية.

ثانياً: إن المهاجرين إلى الحبشة لم يختلطوا بغيرهم اختلاطاً واسعاً بل إنهم كانوا في أماكن خصصت لهم لا تمكنهم من الاندماج الكامل والعيش الطبيعي في أوساط المجتمع، ولعل تلك كانت سياسة متعمدة من قبل النجاشي خوفاً على أنفسهم وحتى لا يتعرضوا للإيذاء من قبل الأحباش بصفة عامة، أو من قبل أعدائه بصفة خاصة، لأن تجمعهم في مكان واحد أضمن من الناحية الأمنية كضيوف، أو كلاجئين سياسيين ـ حسب المصطلحات العصرية ـ.

كما أن عامل اللغة من المعوقات التي تعرقل نشاطهم وتضعف جهودهم لنشر الإسلام في الأوساط الشعبية، لأن المهاجرين ما كانوا يعرفون اللغات المتداولة هناك[1]، وهذا حاجز طبيعي يحد من أنشطتهم الدعوية والعلاقات الاجتماعية التي تساهم في خلق أجواء من الثقة المتبادلة والتفاهم ونقل المعلومات بالسرعة المطلوبة.

ثالثاً: إن طبيعة المرحلة كانت من العوامل الأساسية لضعف انتشار الإسلام فهجرة المسلمين إلى الحبشة لم تكن هجرة قصد منها الدوام والاستقرار، بل كانت مؤقتة، فلو كانت الهجرة لنشر الإسلام والدعوة وإقامة مجتمع إسلامي في الحبشة لاختلف الأمر كما حدث في المدينة المنورة.

كانت هجرتهم مؤقتة لذا كانوا في انتظار دائم في لحظة العودة إلى الجزيرة العربية، هذا ما قبل هجرة المدينة، أما بعدها فقد تغير الوضع إلى حد كبير.

---

(١) هذا الأمر ينطبق على المرحلة الأولى للهجرة إلى الحبشة لأن بعضهم قد تعلم لسان القوم أثناء إقامتهم في الحبشة.

فوجوب الهجرة إلى المدينة المنورة على كل مسلم جعل الصحابة رضوان الله عليهم مرتبطين ذهنياً بمهد الإسلام حيث يقيم الرسول ﷺ، والذي يؤكد هذا أن بعض الأحباش الذين أسلموا وقدموا المدينة المنورة بقوا مع إخوانهم ولم يرجعوا إلى الحبشة.

وقد تحدثنا عن هذا الموضوع عند الحديث عن عودة المهاجرين إلى الجزيرة العربية وأسبابه.

رابعاً: مما وضع الحبشة هامش الحياة الإسلامية بعد عودة الصحابة منها انشغال مجتمع المدينة بالجهاد في سبيل الله داخل الجزيرة العربية ضد القبائل العربية والتي ما زالت على شركها وعبادة الأصنام، فبعد أن هاجر المسلمون إلى المدينة أقام الرسول ﷺ مجتمعاً مسلماً يحكمه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فتأسست أمة من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان.

وبعد تلك الخطوة الموفقة التي حولت المدينة إلى عاصمة للإسلام، ودار هجرتهم وملتقاهم، ومنطلق كتائب الجهاد، أصبحت المدينة تعلن مبدأ فريداً في نوعه، مبدأ يحرر الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ويخرجه من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان. وبالتالي أصبحت المدينة مركزاً خطيراً اجتمع فيه كل عناصر القوة والحيوية فالمدينة المنورة بالقيم الجديدة أصبحت تحدياً قائماً ضد الكفر، ولكي يكون المسلمون بمستوى التحدي فرض الجهاد عليهم ابتداء من السنة الثانية للهجرة دفاعاً عن الإسلام والمسلمين ونشر الإسلام وإزالة العقبات التي تحول بين الإسلام وبين الشعوب الراغبة في الدخول فيه حتى لا تكون فتنة في الأرض وفساد كبير، فمنذ ذلك التاريخ والأمة الإسلامية بقيادة الرسول ﷺ في حركة دائبة لا تعرف السكون، حيث النداءات «حي على الجهاد» تتواصل بلا انقطاع أي أن الجهاد أصبح الشغل الشاغل لكل فرد من أفراد الأمة. وخاضت عشرات من الغزوات التي شارك فيها الرسول ﷺ وسرايا عديدة تفوق على الحصر بكثرتها، ودارت معارك مصيرية سجلها التاريخ في ذاكرة لا تنمحي أبد الدهر ولا تزول بزوال السنوات.

ففي ظروف كهذه كان لزاماً على الأمة أن توظف كل إمكاناتها وقدراتها المادية والمعنوية لبسط الهيمنة الإسلامية وتحقيق انتصارات تؤدي في نهاية الأمر إلى إخضاع قوى الكفر يهوداً كانوا أو مشركين، وخاصة المناطقة الواقعة حول المدينة المنورة حتى تكون عبرة لبقية القبائل وقوى الشرك عموماً.

فهل نتصور أن باستطاعة المسلمين الاهتمام بأحوال الحبشة ومتابعة أوضاعهم الداخلية؟!! فهل مثل هذه الظروف المثقلة بالهموم اليومية والجراحات المتواصلة والأعباء المادية الثقيلة تترك فرصة التأمل في منطقة بعيدة ومفصولة عن الجزيرة؟!!

إن الواقع يقول: لم يكن هناك وقت للتفكير، ولهذا لم يكن اهتمام يذكر تجاه الحبشة بسبب المشكلات المحلية، وبأن الاهتمام كله كان منصباً لبناء اللبنة الأولى في المدينة المنورة لتكون نبراساً وقدوة تستهدي البشرية بنموذجها.

وبهذه الظروف التي أملت المرحلة الدعوية على المسلمين، لم يجد مسلمو الحبشة الرعاية المطلوبة والتي كانوا بحاجة إليها، لأن الإسلام فيها كان نبتاً طرياً لم يستوِ عوده بعد، كان يحتاج إلى متابعة دقيقة وعناية مستمرة حتى يستقر أصله بثبات ويتحول إلى شجرة باسقة، ولكن ذلك لم يكن ممكناً، وليس معنى ذلك أن النبت قد يبس وأصبح هشيماً تذروه الرياح، بل استقر في أعماق الأرض وإن تباطىء نماؤه وتأخر نفعه العميم، إنه مثل الكلمة الطيبة كما نشاهده اليوم، كيف عم الإسلام في نهاية الأمر على أرجاء الساحل الغربي للبحر الأحمر. يقول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

(١) سورة إبراهيم: الآيتان ٢٤ ـ ٢٥.